النّصّ السّيريّ لأعلام نفوسة سير نساء إباضيات

أ. أحمد محمد بن زايد
طالب دكتوراة / كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة 9 ابريل تونس

الملخّص:

حديثا، مثّلت مسالة المرأة وحرّيتها وإسهامها في الحياة العامة مطلبا أساسيّا للنهضة العربية. ولكن أوراق التاريخ، قديما، تخفي كثيرا من انجازات المرأة، ومن حضورها في الحياة العامّة بمختلف مستوياتها. فكانت مطالب الحداثة بذلك شيئا مستجدا مرّة وغريبا وافدا مرة أخرى. وإن نحن بحثنا في كتب التاريخ وفي الإخباريات لواجدون للنساء حضورا مميزا في مجالات السياسة والأدب، ولكنّه حضور محتشم في كتب التراجم والأعلام عددا ومتنا.

وفي ثنايا ما كُتِب عن سير الأعلام في جبل نفوسة وخاصة من الإباضيين – باعتبار الإباضيّة مذهبا رسميا لساكنة الجبل لفترات ممتدة – قد يجد الباحث بعض الأسماء النسائية ويلاحظ حضورا مميزا للمرأة في الحياة وفي البيئة النفوسية. وهذا الحضور رغم ندرته وضآلة ذِكْره يبيّن ملْمَحا مختلفا لأعلام نفوسه قديما وحديثا. ويكشف صورة مختلفة للمرأة في الثقافة العربية الإسلامية غير الصورة النمطيّة التي راجت وشاعت ورسختها نظرة الاستشراق والتبعيّة المُلْحَقة.

النّساء الأمازيغيات / نساء جبل نفوسة صورة أخرى نكتشفها في كتابٍ سيريّ لنساء إباضيات أعدّته امرأة هي بدرية بنت حمد الشقصية. وحضور نساء جبل نفوسة تحت يافطة الإباضيّة في كتاب ينتمي إلى المشرق دليل قوة الحضور وشدة التأثير وأهميّة الدور.

وما نطلبه من النّظر في هذا الكتاب إلى جانب الاطلاع على سير نبيلاتٍ عالماتٍ من جبل نفوسه كشف دور المرأة وحضورها وقد استأثر الرجال الأعلام بأغلب التآليف من جهة ومرتكزات النص السيري لأعلام نساء نفوسة مقارنة بالنص السيري العام الذي تهيمن عليه صيغة الذكورة.

الكلمات المفاتيح: السيرة الإباضيّةL نساء اباضياتL نساء نفوسياتL أعلام جبل نفوسة

Abstract

Recently, the issue of women, their freedom, and their contribution to public life has represented a basic demand for the Arab renaissance. But historical papers, in the past, hide many of women's achievements and their presence in public life at various levels. The demands of modernity were something new at times and strange and new at other times. If we search in history books and news stories, we find a distinct presence of women in the fields of politics and literature, but they are a modest presence in biographies and notable figures in number and content.

In the context of what was written about the progress of the notables in the Nafusa Mountains, especially from the Ibadis - considering the Ibadis
Keywords: The Ibadis, Nafusa women , Nafusa Mountains Scientists

المقدّمة:

نتناول أعلام جبل نفوسة من باب قلّ وُلوجه وندر الاقتراب منه. فترجمة الأعلام النّسويّة من جبل نفوسه لم يحظ باهتمام كبير من الباحثين ولا من الكتّاب المترجمين للأعلام. والنص السّيري أو التَّرْجَمي للمرأة لم يكن مثيرا للاهتمام كثيرا في أعمال المهتمين بجبل نفوسه وتاريخه وأحواله. ونُدقّق الاهتمام في هذا الباب بالنص الترجميّ تحديدا. فالنصّ الترجميّ له خصائصه الفنيّة أو الأسلوبيّة وله منهجيّته المميّزة عن بقيّة النصوص. ونحن بهذا نرمي إلى غايتين الأولى هي تناول التراجم والسير النسائية من خلال مؤلف مرجعيّ محدّد هو السيرة الزكيّة للمرأة الإباضيّة، ومنه ننفتح على مؤلفات السير والتراجم الإباضيّة عامة والنفوسية بوجه خاص. أما الثانية فنحاول أن نتبيّن بعضا من ملامح أنشطة المرأة النفوسيّة وأدوارها الاجتماعيّة.

العَلَميّة في مفهومها العامّ تَعني التحْديد والتّعْيين. فالاسم العَلَم تتعلّق إحالته بشخص محدَّد وهو إشارة إليه دون غيره في سياق استعماله. وإنْ تعدّدت المسمّيات بالاسم الواحد، توجّبت زيادة العلامة لزيادة المَعْنيّ بالإشارة. والعَلَم في مستوى خاصّ ليس مجرّد كينونة عابرة في التاريخ، بل العلامة المميِّزة لمرحلةٍ، أو فترةٍ، أو حالةٍ، أو حدثٍ. فليس العَلَم إلاّ رمزا أيقونيا يَخْرج من المجالات الخاصّة إلى مجال أعمّ، من مجال المرحلة التاريخيّة إلى مجالات التاريخ العام والأكبر. فيتحوّل بذلك إلى نوع من الرّمز الدّال أو الأيقونة المُحِيلة إلى الفترة والحدث ويصبح مثالا مجسّدا لكلّ القيم التي حملها. فتُسَمى به مرحلة أوعهد كقولنا عصر الأمين أو خلافة عمر.

بالعَلَميّة الرمزية يخرج الاسم من الإحالة على الشّخص التاريخيّ إلى الإحالة على القيمة التي يمثلها. فليس اسم عمر إلاّ إحالة إلى المسمى به في سياق حضوره المادي أو اللغوي (المقام أو السياق) أما العَلَم عمر فلا يكون إلاّ إشارة لغوية إلى قيمة هي العدل أو القوّة أو الشجاعة فيقال "عدل عمر ويشبه به العادل". وقس على ذلك كافة أسماء الأعلام التي ترسّخت بفعل الزمن في اللغة والفكر والاعتقاد.

العَلَميّة إذن تسمية تَخْرج من المجالات الخاصّة إلى المجالات العامّة. ولكنّها قد تُقْلب الأدوار في حضورها. فتخرج من العامّ إلى الخاصّ حسب السياقات الكلامية. فليس يَعْني الكِتاب عند المسلمين ما يعرف لغويا بالكتاب، بل هو كتاب مخصوص محدّد هو المصحف وآي القران. ولا يعنى باللّفظ " كتاب" عند النحويين إلاّ كتابا بعينه هو كتاب سيبويه النحويّ. وكلّنا ندرك أنّ الحديث عن المدونة مثلا لا يكون إلا إشارة في السّياق الثقافي العربي الإسلاميّ العامّ إلى مدوّنة مخصوصة هي مدوّنة الفقه المالكي للإمام سحنون. وهكذا فالعلمية

تكون خصوصيّة تتعلّق بالأبعاد الرمزية او الأيقونية المتعلّقة بالذّهن والفكر لا بالوقائع المجرّدة والأحداث السيّارة. والأعلام في ترجماتهم ليسوا مجرّد أسماء تُذْكر وأخبار تروى، بل هم إشارات إلى قيم محدّدة ومعان متداولة تخرج من حيّز الوجود الذّهني المطلق إلى مجال الواقع المادّي. فتتجسّد في الأعلام القيم والمبادئ وتتحوّل عَلَميّتهم من المجال التاريخيّ الضيّق المحدود بالزمان والمكان، إلى مجال القيم المطْلَقة والمبادئ الإنسانية أو الاجتماعية العامّة.

العَلَم هنا ليس ما يحْمِله الاسم من دلالة على المُسَمّى أو من مخايل له أو من استشراف وتوقّع ورجاء عندما سُمّي الشخص بالاسم، بل يقصد به القيمة المطْلَقة العابرة لحدود الزمان والتي يتعلق بها العَلم وتتعلّق به. فالخنساء عندما رثت أخاها رثت معه قيم الكرم والنجدة والرفق واللين والحبّ وهو "العَلَم في رأسه نار" شهرةً ومجدا. وإذْ وارَتْه التراب دفَنَت معه تلك القيمَ التي يمثّلها ويجسّدها ويرمز إليها. فموته عندها حوّله من العَلَم "صخر " الدال على الشخص التاريخي الذي وُسِم بالدال (ص،خ،ر) وبمدلول الصّلابة والقوّة والشدّة، على عادة العرب في تسمية أولادها، إلى علم جديد حامل لقيم كبرى يقدّسها المجتمع ويجعلها سبيله في الحياة.

إنّنا مع الأعلام نقف في مجال واسع بين الأسمائيّة والرمزيّة، وبين الاسم، ودلالاته، وتاريخه، ومراجعه. من هنا كانت معاجم الأعلام وكتب التراجم والسير أبعد عن الكتابة التاريخية وأقرب إلى الكتابة في المآثر، واللطائف، والرقائق، والمناقب. فيتتبّع النصّ التّرْجمي أو السّيريّ ما يحمله الاسم من القيمة الأخلاقية أو العقائدية أو السّلوكية، وقد يُهْمل التّدقيق التاريخيّ للوقائع والأحداث في حياة من يترجَم له.

لا يختلف الناس في أنّ الإنسان خطّاء وأنّ سيرته لا تخلو من العيوب أو الذنوب ومن الجهل أو التقصير والغفلة، ولكنّ سير الأعلام لا تكون إلاّ انتقاء لعَطِر الكلام، ونبيل المواقف ودقيق الآراء وجليلها.

العَلَميّة إذن تَعْرض لقيم مجتمع ولرؤية دارس ولتاريخ شخصية. والكاتب لتراجم الأعلام واقع بين سرديّات التاريخ بما فيها من قصد الحقيقة ودقة التوثيق، وبين صورة العَلَم وما قد يكون عليه في سرديات مجتمعه خاصة[1] وتضاف في دراستنا خاصيّة النّسويّة، ففيها من المحاذير ومن العوائق ما يجعل الباحث والمترجم يتحرّك في مجال تكثر محظوراته وتتنوّع عقباته، ومنها أنّ العلم النّسوي المترجَم له ينتمي إلى مجتمع يسمّى محافظا للمرأة فيه خصوصية لا يمكن تخَطّيها.

[1] – تمتزج في سير الأعلام عادة الحقيقة بالخيال بالأسطورة ويتحول الشخص التاريخي إلى بطل خارق او عالم لا مثيل له.

المرأة النفوسية تعيش في مجتمع محافظ، (بالمعنى الاجتماعي خلوّا من كل شحنة تقييمية أخلاقية) والمجتمع المحافظ هو المجتمع الذي يلتزم بمواثيقه الاجتماعية ويُسَيّر حياته وفق الرؤى التي تحكم الجماعة برضًى وقناعة، ويلتزمها الجميع ويحافظ عليها باعتبارها جزءا من هُويته الخاصّة ومن ميزاته الحضاريّة والثقافيّة.

تعيش المرأة النفوسية في مجتمع متديّن، يجعل الدّين أساسا لحياته وعلاقاته. ومن الدين يلتزم مبادئ مذهبٍ من مذاهبه. وهذا المذهب مُصْطبغ بخصائص الثّقافة التي وفد عليها وبالتنظيم الاجتماعي الذي تَلَقّاه وتَقَبّله.

المجتمع النّفوسيّ مجتمع مسلم ويتبع المذهب الإباضيّ. والصفتان تلتبسان بالهُويّة الأمازيغيّة التي تجعل للمرأة النّفوسيّة أدوارها المميزة ووظائفها المحدَّدة داخل المجتمع النّفوسيّ المسلم الإباضي الامازيغيّ.[2] المرأة النّفوسيّة إذن مَوْسومة بخصائص مجتمعها وثقافته لذلك يكون الأعلام من النّساء صورة من المجتمع النفوسيّ بكلّ خصائصه.

أمّا العلمية أي أن تتحوّل الشخصية من شخصية عاديّة إلى قيمة أو رمز ،فتجسيد واقعيّ للقيم التي تحكم المجتمع. والعَلَم هو من حَظي بمكانة اجتماعية ترفعه من مجرّد عنصر وظيفيّ إلى قيمة وظيفيّة عند البقيّة من معاصريه وأسلافه. أي أن يتحول بنوع من الإجماع أو الاتفاق الاجتماعي إلى قدوة تُتّبَع، وسيرة تُرْوى، وحكاية تتناقلها الأجيال. العَلَم لا يُحْبَس في حدود عصره أو فعله، بل يتحوّل إلى قيمة مطلقة تربط الماضي بالحاضر بالمستقبل وتكُون مكوّنا من مكوّنات الهوية الجَمْعيّة، بها يضرب المثل واليها تنسب الفضائل.

العَلَميّة وحضورها إنشائيّا بالكتابة والتاريخ

العَلَمية في الكتابة التاريخية تكون متنوّعة منهجيّا، فقد نجد السيرة، ونقصد تحديدا السيرة الغيرية دون السّيرة الشخصية، كما نجد التأليف في الطبقات والتراجم ومعاجم الأعلام. وكلّها تجعل العَلَم موضوعا لها وتسعى إلى وضعه في دائرة الضوء. وفي كلّ نمط من أنماط التأليف نجد نصّا مرفقا بالعَلَم (الاسم/ الشخصية). فإن كان النصّ السّيريّ يحاول لملمة أشتات حياة طويلة في نصّ مكتوب يراوح بين القصصي والتاريخي فإنّ التّرجمة أو الطّبقة تحاول التعريف المختصر بالعَلَم والتركيز على أهمّ معرِّفاته.

السيرة:

جاء في تعريفها نص طويل مخصّص لحياة علم من الأعلام المشاهير أو عن مجموعة من الأعلام بلغوا درجة من الاستقامة والنبل، مأثورة أقوالهم ومحمودة أفعالهم وتتميز بالأمانة والموضوعية وتسجل حوادثه وأخباره

2 – ينظر في هذا كتابان حديثان

كتاب الأستاذ منصور بوليفة. عن دول التثاقف في بلاد الغرب الإسلامي. ط1، (دار الشنفرى)، تونس 2024.

كتاب الأستاذ يوسف بنموسى. الإسلام الأمومي قراءة سوسيولوجيا أنثروبولوجيا للإسلام التارقي. ط1،(دار المقدمة)، تونس 2024.

وتنقل أقواله وتُسْرَد أعماله وآثاره ومناقبه طيلة فترة حياته أو في إحدى مراحلها. قد تبدأ من ولادته (العَلَم) وتنتهي بوفاته أو تقتصر إحدى مراحل الحياة. أي أنّها تمثّل حياة إنسانية متكاملة من المهد إلى اللّحد. بل إنّها قد تَصِل إلى ما قبل المهد من تاريخ الآباء والأجداد."[3] السيرة فنّ أثير في الثقافة العربية الإسلامية وللإباضية اهتمام كبير بها. فنجد كثيرا من الكتب التي عنونت ب سير مسندة إلى كاتبها ك سير المشايخ للشماخي والوسيانيّ. [4] وللإباضية رؤية خاصة للسيرة تأتي من تميّز ثقافتهم واجتماعهم إذ يرى الزرويل صالح:" أن إباضية الغرب يرون السيرة على أنّها تاريخ ممزوج بمآثر الشخص وحسن سيرته وتنسب عادة إلى صاحبها (كاتبها). كما أنّها "قد تأتي على شكل مواعظ وحكم وأمثال وأحكام فقهية ووصايا تربوية مثل ما جاء في سير أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي."[5] ويقول الشماخي: " إنّها بعض أخبار السالفين بعد التيمن بألمع أخبار رسول الله والتبرّك بشيء من أخبار الصحابة" وعدّد السالمي عبد الرحمان أنماطها فرآها أربعة أنماط.[6] كما تمتاز ب بأنّها: تكملة لبعضها البعض والهدف العام من هذا المشروع هو حفظ آداب الأئمة الدّعاة والهداة بين عامة الشعب إذ يحوي إرثا سيريّا ومناقبيّا يتمّ تدوينه ومراجعته وتطويره. ويرى الهاشمي حسين أنّ السيرة الإباضيّة اتسمت ب"الاستمرار والتجديد والتجريح والتنقيح و أنّها شهدت ما لم تشهده سيرة من سير الجماعات والأقوام عند العرب في المشرق والمغرب" وأنّها " قد استوت... بعد التدوين والمراجعة والمتابعة مشروعا مكتملا".[7]

نتبين من هذا القيمة التي أولاها الإباضيون للسير والمكانة التي حظي بها أعلامهم ورموزهم الدينية والسياسية. فالسيرة في جوهرها تخليد لذكر، وتوثيق لحدث، وتحقيق لتاريخ، ورجال.

الطبقات:

الكتابة في الطبقات تشق كل الفنون. فلكل مجال من المجالات أعلامه وهم متباينون قيمة ومختلفون عصرا فيكونون بذلك طبقاته. والمصنفات في هذا العلم لم تتوقف لازمان ممتدة وتقاطعت مع فنون كثيرة. فمن طبقات

[3] – الزرويل صالح وبوسعد الطيب. السيرة الإباضيّة ببلاد المغرب الوسيط: مسارها ومشايخها، مجلة مدارات تاريخية مجلد 4، عدد1، أفريل 2022 (ص 30)

[4] – المصدر السابق

[5] – نفس المصدر

[6] – السالمي عبد الرحمان. السيرة العمانية كجنس أدبي، مجلة نزوى، عدد19، سنة 1999.

[7] – نقلا عن الزرويل/بوسعد الطيب

القراء والمفسرين والأطباء إلى طبقات المتصوفة والشعراء والمحدّثين. ولم يخل فن الترجمة للأعلام الإباضيين من كتب الطبقات والأشهر بينها ما كتبه الدرجيني والبرّادي[8]

ومصطلح الطبقات مصطلح إسلامي بحت تطور من بداية القرن الثاني من الهجرة مع تطور نقد علم الحديث للإسناد. وتعتمد الطبقة على التقسيم الزمني (التاريخيّ) عادة. ولكنها لم تعتمد الزمن معيارا وحيدا في التقسيم بل " كانت تعتمد على اللقيا في المقام الأول وهذا ما جعل مفهوم الطبقة يختلف من مؤلف إلى آخر"[9] , وتعريف الطبقة كما وردفي المعجم يشير إلى ثلاثة معان: ما يغطّي الشيء ثم المرتبة والمنزلة والدرجة ثم القوم المتشابهون في شيء معين. وهو ما انعكس على الاصطلاح فتحدد ب القوم المتشابهون او المتقاربون في الإسناد أو لقاء الشيوخ أو الجيل بعد الجيل (التتابع الزمني واللقيا). وعلم الطبقات "هو العلم الذي يجمع المسائل المتعلقة بالقوم المتشابهين في صفة ما أو أكثر نسبا ومولدا وعطاء بصورة تميزهم عن غيرهم ممن لا يشابهونهمّ[10] وما نستخلصه من هذا أنّ التأليف في الطبقات يعتمد الترتيب الزمنيّ التاريخيّ، وأنّه يترجم لأهل علم من العلوم أو مذهب من المذاهب والغاية منه التعريف بالعلم والترتيب الزمني للأعلام ثم لعناصر الطبقة الواحدة خاصة ما تعلق الأمر بالشيخ ومريديه أو تلاميذه أو من عاصره والتقاه فتعلم عليه او دارسه العلم.

المناقب:

تحمل الكتابة المناقبيّة وكلمة المناقب المعنى اللغوي الأوّل للنَّقِيبَة أي الخَلِيقَة والنّفس. فالمعنى الأساسي متعلق بما هو روحييّ وأخلاقي في درجة ثانية. ويضاف إلى هذا المعنى آخر حسّيّ يشير إلى الطريق الضيق والثقب أو الفتحة ومنها النّقاب والمَنْقَبة أي الطريق الضيق. ويقال فلان نقيب القوم إذا كان حسن الخليقة والسيرة عارفا بأمورهم ودخيلتهم"[11] فبهذا تكون الكتابة المناقبية تدوينا لمحاسن العَلَم الذي تتم الترجمة له وتصير طريقا إلى معرفة محاسن الأخلاق ومآثر الصالحين ممن تسيدوا بين أهلهم بما أوتوه من جميل الفعال وعظيم المواقف وخوارق القدرة.

---

[8] – الدرجيني. أبو العباس أحمد بن سعيد. طبقات المشايخ بالمغرب. (حققه وقام بطبعه) إبراهيم طلاي. دت.

– البرادي. ابو القاسم بن ابراهيم. الجواهر المنتقاة. (صححه وقدم له وعلق عليه) احمد بن سعود السّيابي، ط 1، دار الحكمة، لندن، 2014.

[9] – بو شيّة محمد شافعي مفتاح. كتب الطبقات ظهورها ودورها ومحتواها وخصائصها: دراسة تحليلية. بحوث مؤتمر بجامعة منوبة تونس 2012.

[10] – سيد نوح نقلا عن بو شيّة (مصدر سابق)

[11] – ايوب بن حوّد وبلقاسم مالكية. أدب المناقب: المفهوم والجذور. مجلة مقاليد. العدد 10، جوان 2016.

والكتابة المناقبيّة اصطلاحا هي تتبع وقائع حياة أفراد بعينهم. فالمناقب مجموعة "سياقات تسود وقائع وأحداث تتّصل بسيرة شخصية أو مجموعة من الشخصيات اشتهر جميعها بصدق الطويّة وصلاح السلوك تأصيلا للموعظة وإثمارا لنهجها الفاضل القويم"[12]

تجمع الكتابة المناقبيّة بين الترجمة للعَلَم والتتبّع التاريخيّ لبعض أحداث حياته مع الاصطباغ بالأدبيّة وخاصة بإعلاء القيمة الأخلاقية للفعل أو القول وتقريظ الشخصيّة بإبراز فضائلها دون معايبها. وقد التبست في أحيان كثيرة بالخيال أو التفكير الأسطوريّ خاصّة عند المتصوّفة بذكر كراماتهم.

التراجم أو الترجمة/ تراجم الأعلام:

الترجمة لغويا تعني البيان والتوضيح للكلام أو نقله من لغة إلى لغة. وترجمة فلان سيرته وحياته.

وتَعَرّف الترجمة اصطلاحا بأنّها "نوع من الأنواع الأدبيّة التي تتناول بالتعريف حياة رجل أو أكثر تعريفا يطول أو يقصر ويتعمّق أو يبدو على السطح تبعا لحالة العصر الذي كتبت فيه الترجمة وتبعا لثقافة كاتب الترجمة ومدى قدرته على رسم صورة واضحة ودقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التي جمعت لديه عن المترجم له"[13] ويراها البعض من التأليف التاريخي (لا الأدبي). فهي أعمال مَرْجعيّة تعرّف بحياة مجموعة كبيرة من الأفراد البارزين في المجتمع. ويتم ترتيبها بطريقة معينة (ألفبائية، هجائية، زمنية، بحسب تاريخ الوفاة، طبقات..).

فكتب التراجم أدخل في الأدبية عادة وأميل إلى القصر في نصوصها لأنّها تركز أساسا على مميزات الشخص المترجم له، وهي مميزات تعرّفه عَلَما وتؤكّد دوره في مجاله. وكثيرا ما تكون متعلقة بجماعة دينية أو مذهبية أو بأعلام عِلْم من العلوم أو فن من الفنون. وغالبا ما تعتمد المنهج المعجمي في الترتيب الألفبائي حسب الاسم ومن أشهر تراجم الإباضيّة معجم أعلام الإباضيّة وهو مؤلف جماعي راجعه الدكتور محمد صالح ناصر. [14]

---

[12] – المصدر السابق

[13] – خديجة بتكلوف وفضيلة سالم. كتب السير والتراجم وأهميّتها في كتابة تاريخ الصحراء والسودان... (بحث ماجستير جامعة الجزائر 2021).

[14] – معجم أعلام الإباضيّة من القرن الأوّل الهجري إلى العصر الحالي (قسم المغرب الإسلامي / مراجعة محمد صالح ناصر) ط2 دار الغرب الاسلامي2000.

تحوصل هذه التعريفاتُ الفنونَ التي تتعلق بالأعلام عموما، ومن خلالها نستنتج أنّ الإباضيين ومنهم النفوسيين لم يتركوا سبيلا للتعريف بأعلامهم إلّا سلكوه، لما في سير الأعلام وتراجمهم من المناقب ولما في تنويعهم إلى طبقات من فائدة علمية أو مذهبية اجتماعية.

والملاحظ أنّ أغلب كُتّاب السِّير والتراجم من الإباضيين لم يخصص لأعلام النساء فصلا أو طبقة أو جزءا، بل كانت سيرهن وتراجمهن دَرَجَ السِّير العامّة.[15] لذلك ينْصَبّ الاهتمام في هذه الدراسة على كتاب اختص بأعلام النساء من الإباضيّات ونخص بالاهتمام نساء نفوسة باعتبارهن الأعلام التي تهدي والشخصيات التي وتؤثر فتكون قائدة وقدوة.

في مقدمة كتاب سير البغطوري وجدنا نصا مهما لقيمة المرأة في كتابات السير الإباضيّة يقول صاحب المقدمة "هذا الكتاب وما شابهه من كتب الإباضيّة بالمغرب أنّ مكان المرأة فيه واضح شديد الوضوح. ووجودها بين مختلف الأحداث بارز شديد البروز. فما تمضي في القراءة قليلا حتى تعترض طريقك امرأة تستوقفك عن المضي ي سبيلك... لتلقي عليك سؤالا في قضية من قضايا علم الكلام الغامضة أو مشكلة من مشاكل الفقه العلميّة التي يحتار فيها أجلّة العلماء."[16]

ولحضور المرأة في كتب السّير يعطي مؤشرات على قيمة الكتابة السيريّة:

1 – السيرة كتابة تاريخية فعلية تتغلغل في جميع نواحي المجتمع ويظهر بذلك صورة طبيعية للأفراد في مجتمعهم. فيختلف بذلك عن تعالي المؤلفات المتعالمة.

2– الكتاب يعطي صورة واضحة عن المجتمع الإباضي ودور المرأة فيه وقيامها بواجباتها الاجتماعية في رعاية الأسرة ومشاركتها في اقتصاد البيت ومساهمتها في المجالات العلميّة والثقافيّة. فنجد مجموعة العجائز أَحْرَزْن احترام معاصريهن فأطلقوا عليهن " الجَدّات المشايخ" وهذه المجموعة يأتيها الناس للاستفتاء والاستشارة وطلب النصيحة. كما نلتقي فتيات سبّاقات إلى مجالات السياسة والعلم في المدارس المعروفة أو على أيدي العلماء المشهورين أو الآباء العارفين.

---

[15] – خصص البغطوري قسما لأعلام النساء في كتابه

+ روايات الاشياخ: أشياخ جبل نفوسة الشهير بسير البغطوري تأليف مقرين بن محمد البغطوري تحقيق عمر بن لقمان حمو سليمان بو عصبانة. ط1 عمان 2017

[16] – البغطوري. ص 84

3 – الصورة العامة التي تعطيها دراسة وضع المرأة (في هذا الكتاب وغيره) تدل على أنّ المجتمع في قضية المرأة على مستوى من الاعتدال والصحة وأنّ الحياة الاجتماعية سليمة (لم يحبس المرأة بمحافظته ولم يكن متهتكا يستبيحها ويستغلها).[17]

في مقدمة هذا الكتاب نجد رؤية واضحة لمكانة المرأة في المجتمع الإباضيّ (ومنها المرأة النفوسيّة) وطبيعة أنشطة المرأة داخل هذا المجتمع مما يجعلها رمزا من رموزه ومثالا يذكر ليحتذى. هذه المرأة اجتمع الأعلام من عالمها المنغلق البعيد في كتاب "السيرة الزكية للمرأة الإباضيّة ل"بدريّة بنت حمد الشقصية".[18] وهو مؤلف فريد لأنه صنع للنساء الاباضيات معجما او كتابا سيريا او كتابة مناقبية او تراجم او طبقات مستقلة عن عالم السير العام الذي تهيمن عليه الرجال من المشايخ

عرض عام للكتاب:

هذا الكتاب حديث التأليف، ولكن مادته تأخذ من التاريخ العام ومن التاريخ الثقافي ملامح كثيرة، نحاول فيما يلي تحديد بعضها. ونعمل في هذه الدراسة على تبين خصائص النص السّيري النسائي بمنهج تحليلي أوّلا ثم بمنهج يعتمد المقارنة ببعض نصوص السير العامة.

الكتاب من الحجم المتوسط وعدد صفحاته 233 قسمته صاحبته إلى ثمانية فصول حدد كل فصل وفق فترة زمنية. ولا تناسب بين فترة وأخرى. فقد نجد فصلا يمتد على نصف قرن وآخر يمتد على زمن يتجاوز القرن.[19]

راوحت الكاتبة بين مناهج متعددة للتعريف بالأعلام. فكانت تعتمد منهج الطبقات في التقسيم إلى مراحل تاريخية ولكلّ مرحلة أعلامها. ولم تلجا إلى الطريقة المعجمية في متن الكتاب ولم تفهرس الأعلام ألفبائيّا. كما أنّها لم تذكر مع الاسم تاريخ الوفاة أو البلاد التي ينتمي اليها العلم كعادة كثير ممن ألّف في الطبقات بنسبة العَلَم إلى بلده. وكثيرا ما اعتمدت الاسم أو الكنية ونسبت إلى الأخ أو الأب أو الزوج (أخت فلان أو ابنته أو زوجته).

أرفقت المؤلفة كتابها بملحق للخرائط يوضّح المجال الذي عاش فيه الأعلام المترجم لهم. فكانت ثلاث خرائط لعُمان والجزائر وجبل نفوسة بين بلدي تونس وليبيا. وهذه المساحة الجغرافية هي الفضاء الذي كان

---

17 – البغطوري. ص 86

18 – بدرية بنت حمد الشقصية. السيرة الزكية للمراة الاباضية. ط1 عمان 2000.

قدم للكتاب المفتي العام لسلطنة عمان سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي وجاء في مقمة وتمهيد للكاتبة وثمانية فصول مع ملحق بالخرائط المتعلقة بمجال حصور المترجم لهم (الجزائر وعمان وجبل نفوسة).

19 – الفصل الاول من 2 هـ إلى 150 هـ اما الفصل السادس من 1000 هـ إلى 1300 هـ اما الفصلان الثالث والرابع فنجد بينهما فترة تمتد على 50 سنة مغيبة (الفصل 3 من 250 هـ إلى 350 هـ والفصل 4 من 400 هـ إلى 450 هـ.

للمرأة الإباضيّة دور وبروز ومكانة في مجالات الحياة المختلفة. ونهتم منه بفضاء جبل نفوسة وامتداده بين تونس وليبيا في محاولة لتتبع أعلام النساء والأدوار التي نهضوا بها.

أعلام نساء نفوسة في كتاب "السيرة الزكية" من إباضيات الجبل لأنّ المذهب الإباضي ترسّخ في هذا المجال وكان له كبير الأثر في الحياة بكل أطيافها. ونلاحظ أنّ ذكر النساء الإباضيات من جبل نفوسة بدأ مع الفصل الثاني من الكتاب وهو الفصل الذي يمسح فترة تمتد ما بين 200 هـ و250 هـ..

لم يخل الكتاب من منهج التاريخ خاصة وهو يوضح في الهوامش الأحداث والمجالات التي عاش فيها الأعلام مع ذكر الشخصيات التي عاصرتها. كما أنّ أسلوب المناقب لم يكن بعيدا عن النصوص التعريفية فالشخصيات جميعها لخصت أهم فضائلها. وتركز الأمر خاصة على العلم والمساهمة في الحياة الاجتماعية. والملاحظ أنّ الكتابة المناقبيّة في النصوص الترجميّة لم تتعرّض للكرامات أو المعجزات والخارقة، بل ركزت على ما هو علميّ واجتماعيّ، وعددت الفضائل الشخصيّة بواقعيّتها وتفاصيلها. وهذا مما يعطي النصّ السّيريّ مصداقيّة وواقعيّة تجعله توثيقا للدور الذي تمثله المرأة النفوسيّة (الإباضيّة) في مجتمعها وحياته.

لغة الكتاب:

جمعت لغة الكتاب بين العمل على تدقيق المصادر والمراجع والإحالات. فعادت إلى الكلمات بالشرح أو التوضيح. ولكنها من جهة العبارة كانت أقلّ دقة. فقد تميّزت بنوع من الميول نحو الأدبية بالبحث عن العبارات الجميلة الفخمة ومعاني التقريظ والمدح المبالغ فيه. لا من جهة الدلالة اللغوية وإنّما من جهة النزعة الذاتيّة. وليس الأمر بغريب عن كتب التراجم والسير الإباضيّة فكثير من المؤلفين في هذا المجال كانت كتابتهم ميالة إلى الذاتية في الوصف والأدبيّة في العبارة والمثال على ذلك ما ورد في ترجمة نانا مارن تقول: " واشتهرت بالعلم والصلاح والرأي السّديد وارتفعت بإيمانها وسلامة نظرتها وصدقها مع الله فوق زينة الدنيا وزخرفها.... كانت في صَحْوها ومنامها لا تتذوّق جوارحها إلاّ حلاوة الإيمان ولذّة الطاعة ونشوة العبادة."[20] فهذه الفقرة من فاتحة نصّ ترجمة نانا مارن مثال مما يرد في ترجمة الأعلام: أسلوب أدبي مغرق في البيانية منزاح إلى تجميل اللفظ وتحسين العبارة مبتعد عن دقّة الكتابة التاريخية وصرامة التعريف العلْميّ.

ففي نفس الترجمة نجد في نهاية النص نجد التالي "وكان لهذا الموقف الحازم من الجدة أثر في التاريخ لايزال إلى اليوم يذكر بالفخر والاعتزاز فهذه الجدة كانت واعية وعارفة بمجرى الأحداث.. وكانت تسعى لتوجيه الأمّة إلى الوجهة الصالحة."[21] فالكاتبة لم تتّبع صرامة الحكم التاريخي وإنّما اكتفت بالاعتبار من قصّة نقلتها

[20] – السيرة الزكية ص 59

[21] – نفس المصدر ص 60

عن الجدة وأصدرت حكما قاطعا وتمادت في امتداح العَلَم (الجدة) وكأنّها بهذا قد عرفتها وأجْلَت كل مراحل حياتها.

أمّا في ترجمة أمّ أبي ميمون الجيطالي فميل الكاتبة إلى السرد والقص كان أوضح إذ عمدت إلى قصتين متشابهتين لتنتهي إلى النتيجة التالية" وهنا أيقنت الأمّ أنّ فِراستها صدقت وأنّ بذرتها التي تعاهدتها تلك الليالي والأيام ها هي مورقة تؤتي أُكِلها الطيب وتنثر الخير والهدى."[22] إنّ النصّ الترجميّ تحوّل إلى نوع من التصوير الفنّي المفعم بالذاتية والزاخر بالأحكام التقييميّة الاخلاقيّة التي تتماشى مع نص التقريظ أو الوعظ والتعليم وتنأى عن الدّقّة التاريخيّة والصرامة العلميّة.[23]

إنّ النصّ الترجميّ في كتاب السيرة الزكية كثيرا ما عمد إلى هذا اللون من الخطاب لينكشف للقارئ أنّ المؤلِّف لم يكن يهدف إلى الاستعراض التاريخي ولا إلى اتّباع منهج محدّد في ذكر سير الأعلام وإنّما الغاية الإشادة بالشخصيات المترجم لها وترغيب القارئ في الاطلاع للتأثر بها ووضعها موضع القدوة.

الملاحظ في هذا الكتاب وقد اختص بالنساء الإباضيات أنّه اتبع ما سبقه من أساليب كتابة السير والتراجم ففيه الأدبية التي نجدها في كتب المناقب من القصص المثيرة والأخبار الغريبة أو النادرة وإن كان يكاد يخلو من الكرامات والمعجزات التي تزخر بها كتب المناقب الصوفية خاصة. ولكن الميل إلى الخطابية غير خاف.

إنّ الميل إلى المناقبيّة أو إلى الخطاب الأدبي ليس الظاهرة المنهجيّة الوحيدة في النصّ. إذ لا يخفى عن القارئ المدقّق أنّ صاحبة النصّ اعتمدت كثيرا على مراجعها وأحالت عليها في مرّات كثيرة وهو ما يضفي على النص بعده التاريخي والتوثيقي. فبالعودة إلى قائمة المراجع نجدها وقد نوّعت المصادر من المخطوط والمطبوع إلى الكتب والمقالات من المجلات والجرائد. فقد نجد في النص الترجميّ الواحد إحالات إلى كتب متنوعة منها السّيري ومنها الأدبي وبعضها من تأليف الإباضيّة وبعضها الآخر من المراجع العامّة. كما أنّها عملت على شرح الكلمات التي قد تبدو غامضة وغير مفهومة خاصة فيما نقلته عن مصادرها أو عمدت إلى تعريب معناها لتتوضّح الدلالة منها، خاصة بالنسبة إلى الأسماء الأمازيغية في أسماء الأعلام.

إنّ كتاب السيرة الزكية للمرأة الإباضيّة وهو يترجم للنساء الإباضيّات خص نساء نفوسة بقسط وفير من الاهتمام. بل إنّنا نجد عدد المترجم لهنّ في بعض مراحل التاريخ مرتفعا (بالنسبة إلى العدد العام) مما يظهر مكانة المرأة النفوسيّة في مجتمعها.

---

[22] – نفس المصدر ص 62

[23] – أشارت الكاتبة إلى ذلك في التمهيد بقولها القصد من ذكر " سير الصالحين ودراسة تاريخهم يحفز الهمم ويثير العزائم الخامدة ويدعو لاقتفاء آثارهم وسلوك منهاجهم

يمكن أن نستجلي صورة المرأة النفوسية في السيرة الزكيّة ونتبيّن ملامحها الكبرى من خلال الفصل الثاني. كما يمكن من خلاله أن نتوضّح منهج الكاتبة في التعريف بالنساء الأعلام النفوسيات. ففي هذا الفصل ترجمة لأربع عشرة امرأة واحد منهن لم تكن منتمية إلى الغرب الإسلاميّ وإلى جبل نفوسة[24] .إنّ هذا العدد في هذه الفترة من التاريخ ليدل دلالة واضحة على قيمة جبل نفوسة مذهبيّا ومكانة المرأة في المجتمع النفوسي وأنشطته المختلفة.

إنّ أنشطة نساء جبال نفوسة الإباضيّات ترجمة صادقة لمكانة المرأة النفوسيّة عموما، ودورها الاجتماعي بمختلف أبعاده. فإذا كانت الفترة الممتدة بين 200 و250 للهجرة بهذا الزّخَم النسويّ فإنّنا نستنتج بشيء من التحفظ أنّ المرأة النفوسيّة كانت عنصرا مهما في مجالات الحياة المختلفة. ومن هنا نتطرق إلى الأنشطة التي قامت بها المرأة النفوسيّة من خلال ترجمة الإباضيات منهن في هذه الفترة وفيما سبقها وما لحقها وإنْ أغفلته الكاتبة أو طواها التاريخ ولفها النسيان ولم تدون.

ان ترجمة النساء النفوسيّات في هذا الكتاب (وهو ملخص جامع لما ورد في كثير من كتب التراجم والسير والأعلام) اعتمدت خصائص ومعايير محدَّدة للتعريف بالعلم أهمّها:

الاسم:

يندر في كتاب " السّيرة الزكيّة "ذكر اسم المترجم لها مباشرة. بل كثيرا ما يكون الذِّكْر بكنيةٍ أو لقبٍ أو صفةٍ. فالعَلَم يُنْسب إلى الأب أو الأخ أو الزوج. فنجد مثلا أخت فلان (أخت أبي حفص عمرو المساكني / ص 95) او زوج فلان (زوج المهدي الويغري/ ص 85) أو ابنة فلان (ابنة أبّان بن وسيم النفوسي /ص 78) كما نجد الاسم الصريح (تكفا بنت أبي عثمان / ص 78) او (بهلولة زوج أبّان / ص 76).

إنّ الاسم هو المعرف الأساسي للعَلَم في المستوى الرّسْمي ولغيابه هنا ما يبرّره. فقد يكون من الأسباب ما يدخل تحت طائلة العادة الاجتماعية باستهجان ذكر أسماء النساء حتى أنّ الاسم الأصلي يغيب أو يُهْجَر ويحلّ محلّه ما يدل على العلم دون ذكره صراحة. وقد يكون لغلبة الصفة أو الكنية أو اللقب على العَلَم حتى يعرف به دون الاسم، وهذا شائع في الثقافة العربيّة الإسلاميّة.[25] وقد يكون لغياب المعرفة الدقيقة بالاسم الأصلي من أسباب عدم اعتماد الألفبائيّة في ترتيب الأعلام والاكتفاء بالترتيب الزمني تماشيا مع منهج الطبقة.

[24] – هي الأخيرة في ترتيب الأعلام ذِكْرا (زوج محمد بن محبوب الرحيلي/ ص 89_ 91).

[25] – الكل تقريبا يعرف الجاحظ وقليل من يعرف عمرو بن بحر ومن النادر ذكر المتنبي او المعري باسم العلم أحمد أو أبي تمام باسم حبيب بن أوس وهكذا.

ما هو جدير بالملاحظة والتنويه أنّ بعض الأعلام تأتي مجهولة الاسم أو الكنية أو اللقب. ففي الصفحة 69 تترجم الكاتبة ل"أمّ جلدين" وتذكر أنّها لا تدري" لم كنيت بأمّ جلدين؟ هل لجلدها وصبرها وقد عرفت بذلك ام ان لها فعلا ابنا يسمى بذلك؟" فهذا العَلَم عُرف بهذا اللقب / الكنية فصارت له اسما يعرف به دون الاسم الحقيقي الرسمي والتاريخي الذي غيبه الزمن ووارته الظروف.

التاريخ:

لا نجد في ترجمة الأعلام في هذا الكتاب تحديدا للفترة التي عاشها المترجم له بتحديد تاريخ الولادة والوفاة، أو على الأقلّ تاريخ الوفاة إذ كثيرا ما تتعذّر معرفة تاريخ الولادة. إنّ غياب التاريخ المحدد بالسنة وباليوم والشهر ما أمكن (ولا نراه ممكنا فيما نحن بصدده) مما يعطي النصّ بعده التوثيقيّ، ويزيد من دقة ما يرد فيه من المعلومات. ولكنّ المتتبّع يمكن أن يجمع من خلال ما نُقل من حياة الأعلام بعض التواريخ وخاصة ما يتعلّق بالطبقة بالتَّتَلْمذ أو التعليم أو اللقاء. اننا نجد مثالا صريحا لهذا بين أمّ زعرور (زوج أبي محمد التغرميني) وأمّ يحي (زوج أبي ميمون الجيطالي) والأستاذ العالم الجليل أبو محمد التغرميني ومعهم نجد أمّ أبي ميمون الجيطالي. ومن هنا يمكن أن نُرتّب الحضور التاريخي للأعلام فأمّ أبي ميمون أوّلا ثم ابنها ميمون ثم أمّ يحي وأبو محمد التعرميني فأمّ زعرور التي يليها ابنها زعرور الذي صار رجلا صالحا.[26] إنّ هذا التسلْسل ممّا اقتضته منهجية الذِّكْر في الكتاب وهو مما يكشف اعتماد منهج الطبقات في التأليف وهو منهج بعتمد التقسيم الزمني أو اللقيا، باعتبار أنّ الأعلام هم من العلماء يتتلمذ الواحد منهم على أستاذه فيلتقيه ويأخذ لينقله إلى الجيل التالي وهكذا. ويتقاطع هذا المبدأ مع ظاهرة السند في الروايات الحديثية إذ تتكون سلسلةّ متواصلة لا تميّز بين الأعلام من الرجال والأعلام من النساء في رواية الحديث.

إنّ غياب التدقيق الزمني لا يمنع من إجراء نوع من التراتب الزمنيّ في مستوى أوّل والتراتب العلمي في مستوى ثان. فيكون بذلك المجال التاريخيّ للعَلَم محدَّدا باستنتاجات من العناصر المتداخلة في ترجمة العَلَم.

بنية النص الترجميّ:

إنّ الترجمة للأعلام في "السيرة الزكية" لا تتّخذ مسارا منهجيّا واحدا بل تحاول الإلمام بكلّ ما يتعلّق بالعَلَم المترجَم له: لذلك لا تحضر النساء النفوسيّ*ات (الإباضيات) في الكتاب إلاّ بمجموع الصفات والعناصر المميزة لكلّ واحدة منهنّ على حِدَة. وبطريقة مختلفة عن الاخريات في احيان كثيرة. ولكنّ خيطا ناظما يمكن أن نلاحظه في النص الترجميّ على ما يبدو عليه من تشوش ظاهر.

[26] – ام ابي ميمون ثم ابنها أبوميمون ثم زوجته، ام يحي وتلميذتها، أمّ زعرور وقد التقتها أمّ جلدين/ السيرة الزكية ص 63 – 71.

يبد النص عادة بتقريظ العلم المترجم له وخاصة بصفات العلم والصلاح وحسن السيرة. وقليلا ما تلجأ المؤلفة إلى ذكر النسب العائلي وإن كانت لا تُغْفل ذِكْر المجال الذي عاش فيه العلَم. فكثيرا ما يعترضنا خطاب تمجيديّ للمترجم له. ويكون هذا الخطاب موجّها إلى مخاطب محدد هو القارئ النموذجي كما افترضته نظرية التلقّي وهو المخاطب المباشر في الوظيفة الإفهاميّة والتعليمية للغة. وهذا الخطاب الذي يتوجّه إلى الآخر (القارئ عادة) يكشف موقفا ذاتيّا انفعاليّا / عاطفيّا في الترجمة يُبْعدها عن الصرامة التاريخيّة. ولكنّه يحقّق هدفا رئيسيّا في أغلب السير والتراجم وهو اعتبار العَلَم المترجَم له شخصيّة مميّزة وفاعلة في واقعها وفي التاريخ ماضيا وحاضرا ومستقبلا. كما يصل بالترجمة إلى أنْ تكون أقرب إلى المخاطب فيتقبّلها باعتباره المعنيّ بالخطاب وليس عنصرا محايدا في النص الترجميّ. هذا مما جعلته الكاتبة غاية لكتابها فمن مقاصد التأليف جعل الأعلام في الترجمة قدوة للاحتذاء عند من يطلع على سيرهم.

ان المتقبّل للنصّ الترجمي يتفاعل معه عاطفيا بسبب اللغة "الشاعريّة" التي يتحلى بها، ونزعة الامتداح والتقريظ المميزة لمعانيه وعباراته. وهو ما يجعل العَلَم في نظر المطّلِع حالة نفسية متجاوزة لحدود المكان والزمان. وبهذا يكون حضوره النفسيّ / القيميّ الأخلاقيّ واضحا رغم بعده التاريخي. ويكون مؤثرا في الواقع بما يمثله من القيم والفضائل وما يرمز إليه من معاني النبل والعلم.

الأعلام من النساء النفوسيّات كانت ترجمتهن في "السيرة الزكية" مَحَلّ احتفال وتعظيم. فلم تميّزهن الكاتبة (تمييزا ايجابيا أو سلبيا) وهي تترجم وذلك لأنّها تهدف من وراء استصفاء نساء الإباضيّة بالترجمة والتعريف إلى إبراز قيمتهنّ ومكانتهن في مجتمعاتهن، وفي تاريخ المذهب. لذلك امتزج في النص الترجميّ التاريخي بالتوثيقي بالمناقبيّ بالسردي.

أمّا المناقبي فيظهر خاصّة فيما يتعلّق بقدرات خارقة للمألوف تميّز العَلَم المترجم له، في حين يظهر التاريخي في تحديد مجال فعله وتأثيره، وفي ذكر معاصريه من الشيوخ العلماء خاصّة. أمّا السردي فأساسه حكاية قصص مختارة من حياة المترجَم له. وقد تكون القصة الأساسَ الذي تبنى عليه كامل الترجمة.

القصة/ السّرد:

السيرة والترجمة والطبقة والمنقبة كلها تتناول حياة العَلَم. والحياة في النهاية قصّةٌ تروى، وحدثٌ يقع ثم تحاكيه عبارات اللغة. فلسنا نجد تعريفا لعَلَم إلاّ وحياته أو جزءا منها هو جوهر المنقول والمرويّ. ولا ينقل عادة إلاّ في إطار قصصي. فقد يكون قصصا تخييليّا سيريا أو خبرا تاريخيا يحاول استجلاء الحقيقة وتتبّع مظانها في المصادر المختلفة. وإعادة بنائها وفق ما يتوفر من المعلومات والمعارف.

والقصة كل قصة إنّما تروى لغايَتيْن أساسيّتيْن إلى جانب غاية الإخبار – التي تمثّل مقصدا من كل خطاب – هي الإمتاع أوّلا والاعتبار ثانيا. وفي السير والتراجم تُرْوى القصص التي تشدّ المتلقي وتثير فضوله واهتمامه وترضي تطلّعاته. لذلك يتميّز ما ينقله كُتّاب السير والتراجم بنوع من الغرابة أو التفرد فيُميّز العَلَم ويجعَلُه قيمة أخلاقية أو سلوكية أو علمية لناقل القصة ومن يتقبَّلُها.

وسير النفوسيّات في "السيرة الزكية" لا تخلو من نَفسَ قصصي يلتقط الحادثة ويبَئِّرها في الترجمة. فتكون في بداياتها منطلقا أو تكون في نهايتها اعتبارا. وقد تكون في بعض الأحيان كامل الترجمة وأساس النّصّ الترجميّ. فيتحوّل النصّ الترجميّ إلى نصّ قصصيّ.

تكون الترجمة للعَلَم قصّة ذات عناصر سردية. فتخلو من كلّ نَفَس تاريخيّ /عِلْميّ. إذ أنّ قصّة الحدث كافية للتعريف بحقيقة العلم ورسم ملامح شخصيته كما ارادها المترجم الكاتب. ومحقّقة للغاية من الترجمة له.

جاء في ترجمة ابنة أبّان بن وسيم النفوسيّ وتكفا بنت أبي عثمان[27] سرد الحدث مجردا فليس يمازج السرد شيءٌ من التاريخ او السيرة. بل كان السّرد مكرّرا لتشابه بين حدثين لعَلَمين ولعل الجامع بينهما الكرامة التي وقعت لهما. فقد وقاهما الله المطر لبِرِّهما بزوجيهما ولالتزامهما بأوامر الشّرْع وخاصة بدعاء الوالد (الأب).

القصة منقولة نقلا تاما تقريبا من سيرة أبان أو ترجمته في طبقات المشايخ للدرجيني[28] ومن كتاب السير للشماخي[29] وفيها اعتماد النقل بطريقتين إسناد الرواية إلى مجهول في ذُكِر أنّ..... والإحالة على مصدر القصة. فالقصة تعمل على أن تكون شكلا من أشكال التاريخ باعتماد الرواية عن المجهول وبالإحالة وفي الحالتين نزوع إلى توثيق الخبر يؤكد التدقيق ويدعو إلى التصديق دون ان يتحمل الكاتب مسؤولية الخطأ التاريخي إنْ وقع.

ففي اعتماد الرّاوي المجهول إشارة إلى أنّ من يروي القصة ليس شخصا واحدا محددا معلوما. وأنّ روايتها توزّعت بين الناس حتى لم يُعرَف لها راوٍ محدَّد وليس أدقَّ ولا أوثق في السير والأخبار مما سارَ بَيْن الناس فتناقلوه جيلا بعد جيل. والرّواية عن المجهول رغم أنّ ظاهرها يوحي بغياب الدقّة إلاّ أنّ عُمْقها يشير إلى أنّ دقتها تكون في حضورها رغم سطوة الزمن، وبلوغها زمن الرواية دون راوٍ محدَّد، بل يتِمّ تناقلها دون إشارة إلى سند لأنّها صادقة عند الناس يعتقدونها ويؤمنون بما جاء فيها.

---

[27] – السير الزكية ص 78.

[28] – الدرجيني. طبقات المشايخ بالمغرب ج2 ص 304 ابنة ابان بن وسيم النفوسي.

[29] – + الشماخي. السير ج1 ص 179 تكفى/ تكفا بنت ابي عثمان.

أمّا الإحالة إلى نصّ السير أو الطبقات فإشارة إلى أنّ النص (القصة) ليس خطابا مُطْلقا ولا حالة خاصة تتبناها الكاتبة. فقد ورد في المصادر الأمّهات. والقصتان تتشابهان أحداثا كأنّ الأمر المُعْجِز أو الحدث المميَّز ليس حالة شاذة ولا وضعية مصطنعة. فقد كانت نساء نفوسة الإباضيات على استقامة دينية واجتماعية وعلى علم بنوازل الحياة وأحكام الشريعة ومبادئ الفقه

. القصتان تتشابهان وتنقلان في مرجعين مختلفين، ولكنها اجتمعتا في كتاب السيرة الزكية لتحقيق غاية الكتابة السيرية وهي جعل العلم قدوة من جهة وتأكيد أنّ ما يتحلى به نافع له في زمنه وحياته وقد يكون صالحا لغيره في زمنه وحياته.

أمّا أحداث القصة فتتلخص في وجود البنت في دار أبيها زائرة ويعوقها المطر عن العودة فتصر على الرجوع رغم المحاذير لأنّها لا ترضى بعصيان أمر زوجها والتصرف دون إذنه" لم يأذن لي زوجي في المبيت وإنّما أذن لي في الزيارة فقط". فيعترض والدها ثم يوافق وقد أدرك صحة موقفها وملاءمته لمطالب الشرع في مبدا طاعة الزوجة لزوجها. تخرج البنت من دار أبيها في المطر محفوفة برضاه ودعائه منفذة لما أمر به الشارع. فتصل وقد وقاها الله بصدقها وإيمانها مضار الخروج في المطر.

إنّ أحداث القصة مُحيلَة إلى معاني الكرامات والمناقب. فقد حمى الله المرأة لصلاحها وإيمانها ممّا تخاف لأن خوفها من الله فاق خوفها مما يتهدّدُها في ذاتها. وإنّ الحادثة إذ تتكرر تشير بوضوح إلى تمسّك المرأة النفوسيّة (الإباضيّة) بمبادئ دينها والتزامها بالقيم الاجتماعية رغم كل ما يمكن أن يكون فيها من الأذى بالنسبة إليها. فهؤلاء النسوة العالمات المستقيمات العارفات بشروط الاجتماع وقواعد الشريعة لا تتردّدْن في القيام بالواجب رغم كلّ المحاذير. بل إنّنا نجد صورة للمرأة النفوسيّة في التزامها بالمواثيق الاجتماعية تخرجها من مجرّد العنصر الاجتماعي الملتزم بالسلوك القويم إلى المرأة المضحية من أجل إقامة المبادئ التي تؤمن بها وتخضع لأحكامها.

في هذا النص الترجميّ (وهو نموذجي تقريبا) لا يتردد السارد / الكاتب / الناقل/ المؤرخ، في التدخل أثْناءها ليُبْديَ موقفا أو ليوضح أمرا. فقد توقّف الحدث بنمطيّه الواقعي الماديّ والقوْليّ الكلاميّ مرّتيْن في النصّ: مرّ ة ليوضِّح السارد أن الأب بعد أن عارض ابنته تفطن إلى خطأ موقفه وصواب موقفها ورأيها يقول " وأقبل اللّيْل فعَلِم الشيخ أنّ الذي قالته ابنته هو الصّواب" ويتدخّل مرّة أخرى يتدخل ليوضح الصورة وليؤطّر العبرة من النصّ القصصيّ / السيريّ / الترجميّ يقول "إنّها امرأة تراعي ربها ودينها وزوجها." هذا التوضيح يشير إلى أنّ القصد من نقل السيرة هو الاعتبار والموعظة والاقتداء. فالسارد يبني قصته لا باعتبارها حدثا تاريخيا ينقل بتفاصيله مجرّدا من الأهواء والآراء، بل يجعل قصّة العَلَم إطارا لإبداء الرأي والتعليق.

إنّ صورة للمرأة النَّفوسيّة الصابرة المؤمنة تتجلّى بكثير من القسوة في شخصية منزو بنت أبي عثمان[30] وهي صورة على ما قد يبدو فيها من البشاعة والظلم إلاّ أنّها تكاد تكون الصورة الوحيدة الواردة في الكتاب وتصور قسوة الرجل (الزوج) تجاه المرأة (الزوجة). فالمرأة النفوسيّة جادّة عاملة تحظى بالاحترام والتكريم من الرجال حولها أو من النساء اللواتي يعرفنها. فما تنقله الكاتبة من سيرة، أمّ زعرور وأستاذتها، أمّ يحي والعالم أبي محمد التغرميني يشير بوضوح إلى قيمة المرأة في المجتمع النفوسيّ (الإباضيّ).

أمّا فضائل المرأة النَّفوسيّة واستقامتها فقد نجد لها أمثلة كثيرة. منها ما جاء في ترجمة النفوسيّة زورع الأرجانية[31]. وكيف تحملت أخت زوجها في مرضها. بل إنّها واجهت زوجها عندما طلب منها حاجة توافقه عليها وهو يستعدّ للرحيل إلى المرعى. فقبلت منه كلَّ شيء منه إلاّ أن تفارق الأخت المريضة. وكان ذلك ما أراده منها. ونكتشف بهذا صدق المرأة النفوسية وتضحيتها من اجل راحة زوجها وسعادة أسرتها. وليس بعيدا عنها موقف نفوسيّة أخرى هي زوج مهدي الويغري[32] التي أعانت زوجها على أمور الدنيا لانشغاله بالآخرة وزهده في كلّ ما هو دنيوي. وكذلك كانت أمّ يحي زوج أبي ميمون الجيطالي[33] فقد سدّدت ديْن زوجها من عمل يديها. ولم يكن هذا الوحيد من مآثرها، بل أنشأت مدرسة للنساء وعلّمتهنّ بعيدا عن الاختلاط وأعانتْهنّ على الدرس والتحصيل، فكانت معلّمة مربّية لغيرها وزوجة صالحة لزوجها أسرتها.

أمّا قسوة الرجل فلا نجدها إلاّ في حالة وحيدة بلغ فيها الظلم منتهاه، ولكن المرأة النفوسية صبرت وجاهدت حتى جاءها الفرج من الله جزاء صبرها والتزامها. أمّامنزو بنت أبي عثمان المزاتي[34] وما لاقته من زوجها العنيف القاسي الظالم فقد واجهته بالطاعة والصبر والتزام مبادئ التعايش الزوجي القائم غلى الطاعة. ورغم تألّمها وشكواها وطلبها دعاء من الله أن يفرج كربها فإنّها لم تعصه ولم تسئ إليه. ونجد كذلك صورة من إساءة النساء إلى النساء في قصص السيرة ف "أمّ جلدين[35] لقيت الأذى الشّديد من بنات زوجها، ولكنّها لم تشتك ولم تتذمّر، بل قابلت الأمر بالصبر والجَلَد حتى فرّج الله كربها.

[30] – الشماخي السير ج1 ص 178/ السيرة الزكية ص 80.

[31] – السيرة الزكية ص 82.

[32] – السيرة الزكية ص 85.

[33] – السيرة الزكية ص 63.

[34] – السيرة الزكية ص 80.

[35] – السيرة الزكية ص 69.

إنّ القصة في "السّيرة الزّكيّة "عنصر أساسي وقيمة توظف لترجمة العَلَم والتعريف به،بل إنّها قد تكون في بعض الأحيان الجوهر الذي يلازمها لن السيرة حياة والحياة قصة وإنْ أُريد للسيرة أن تكون محقّقة لغاياتها بالغة مقاصدها فليس ألطف من السّرد سبيلا إلى دفع المتلقّي لقبولها والإقبال عليها والاتعاظ بها أو الافتخار بالانتماء إلى صاحبها وشخصياتها الأعلام.

الخاتمة:

السيرة الزكية كتاب جمع في نصّ الترجمة التعريفيّة بين ماهو من الطبقات وما هو من التاريخ وماهو من المناقب، وهو مؤلَّف من المؤلَّفات القليلة التي اهتمت بالمرأة الإباضيّة النّفوسيّة ترجمة وتاريخا. وكان للمرأة النفوسيّة فيها مكانة مهمّة عددا وأثرا. ولكن ما يمكن أن يُسْتخلص من هذا المؤلَّف أنّه اهتم بالمرأة النفوسية (الإباضيّة) دون غيرها من النساء وأنّه بقي محافظا على ما سارت عليه كتب السير والطبقات الإباضيّة من جهة النص أولا ومن جهة المنهج ثانيا. فرغم تنوع المراجع التي أحال إليها الكتاب فقد بقي يدور في فلك ما كتبه القدامى من السير والطبقات. وتبقى فضيلته أنّه خلّص تراجم النساء من بعض الهامشيّة في الكتب السابقة. إذ أنّ قصص النساء كلّها أو أغلبها ترد أثناء ترجمة أعلام الرجال من المشايخ والقادة والعلماء. وليس يُسْتثنى في علمنا إلاّ البغطوري في "روايات الأشياخ" إذ جعل محقّق الكتاب في مقدمته فصلا لطيفا عن المرأة الإباضيّة (ومنها النفوسية) ودورها ومكانتها. وكذلك أفرد صاحب كتاب "الإباضيّة في موكب التاريخ" فصلا للحديث عن المرأة ودورها. أمّا معجم أعلام الإباضيّة فقد جعل في الفهرس عنوانا خاصا بالنساء الإباضيّات يمكن من خلاله وباعتماد السيرة الزكية أن نستخلص تراجم أعلام نفوسة من النّساء الإباضيّات كما وردت في كتب التراجم والأعلام والسير لتكون منطلقا لتراجم أعلام نساء جبل نفوسه عامّة.

ان الحديث عن الأعلام لا يخلو من نزوع ذاتيّ لأنّ العَلَم في النهاية ليس مجرد شخصية متخيّلة ولا هو شخص عابر بلا أثر، بل لا يمكن أيكون علما إلاّ إذا دخل التاريخ من أحد أبوابه وتحوّل من النموذج الاجتماعي البسيط والعادي إلى قيمة اجتماعية ورمز للجماعة التي ينتمي إليها. والانتماء هو الهُويّة بمختلف أبعادها، الاجتماعي القيميّ والجغرافي والايديولوجي.وهو بما يميزه عن الشخصيّات العاديّة كثيرا ما يكون عابرا للتاريخ والجغرافيا. فيكون عند معاصريه أو عند خَلَفِه قيمة رمزيّة تتجلّى من خلالها كثير من مقومات الهوية والانتماء. ولئن كانت أدوار المرأة منحَصِرة في المجال الاجتماعي للإسلام البدويّ العربي، فإنّ دخول عديد الأعراق بثقافات مختلفة (أقرب الى التّمدّن) تحت لواء الديانة لم يُلْغِ خصائصها الحضارية. ففي المجال النّفوسيّ الأمازيغيّ كان للمرأة دور فارق في كثير من المواقع خاصة في مستوى الحياة العلمية والحراك الاجتماعي. ومن ضمن نساء نفوسة الأعلام نجد المذكورات في سير الإباضيين عموما وبخاصة في كتاب السيرة الزكية

الذي كشف مظاهر تفوق المرأة النّفوسيّة. واظهر كثيرا من خصالها خاصة وان المجتمع النّفوسيّ كان اقرب إلى الاستقرار من المجتمعات التي تلقّت الرسالة المحمديّة. فكان دور المرأة فيها أكثر وضوحا وأشدّ تأثيرا.

الإحالات:

المراجع:

- البرادي. ابو القاسم بن ابراهيم. الجواهر المنتقاة. (صححه وقدم له وعلق عليه) احمد بن سعود السّيابي، ط 1، دار الحكمة، لندن، 2014.
- –ايوب بن حوّد وبلقاسم مالكية. أدب المناقب: المفهوم والجذور. مجلة مقاليد. العدد 10، جوان 201–
- بدرية بنت حمد الشقصية. السيرة الزكية للمرأة الاباضية. ط1 عمان 2000.
- –بنموسى. يوسف. الإسلام الأمومي قراءة سوسيولوجيا أنثروبولوجيا للإسلام التارقي. ط1،(دار المقدمة)، تونس 2024.
- بو شيّة محمد شافعي مفتاح. كتب الطبقات ظهورها ودورها ومحتواها وخصائصها: دراسة تحليلية. بحوث مؤتمر بجامعة منوبة تونس 2012.
- –بوليفة. منصور. عن دول التثاقف في بلاد الغرب الإسلامي. ط1،(دار الشنفرى)، تونس 2024.
- –خديجة بتكلوف وفضيلة سالم. كتب السير والتراجم وأهميّتها في كتابة تاريخ الصحراء والسودان... (بحث ماجستير جامعة الجزائر 2021).
- الدرجيني. أبو العباس أحمد بن سعيد. طبقات المشايخ بالمغرب. (حققه وقام بطبعه) إبراهيم طلاي. دت.
- الزروبل صالح وبوسعد الطيب. السيرة الإباضيّة ببلاد المغرب الوسيط: مسارها ومشايخها، مجلة مدارات تاريخية مجلد 4، عدد1، أبريل 2022
- السالمي عبد الرحمان. السيرة العمانية كجنس أدبي، مجلة نزوى، عدد19، سنة 1999.
- مقرين بن محمد البغطوري. معجم أعلام الإباضيّة من القرن الأوّل الهجري إلى العصر الحالي (قسم المغرب الإسلامي/ مراجعة محمد صالح ناصر) ط2 دار الغرب الاسلامي2000.